قراءة المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمة المجاعات والأوبئة

ماجدة كريمي

كلية الآداب، سايس، فاس

يعتبر البحث في الجانب الاجتماعي من تاريخ المغرب وبالذات الجانب الحضري من الحقول المعرفية التي تحتاج إلى المزيد من التنقيب وتعميق البحث، ذلك أن محاولة قراءة المدينة المغربية من زوايا متعددة تعد وسيلة ناجعة لفهم التاريخ المغربي. فالمدينة تختزل تاريخ الدول التي تعاقبت على حكمها بل وتاريخ الشعوب التي تعايشت بين أحضانها. ومن ثم تكون مناقشة العديد من المواضيع انطلاقا من المدينة وسيلة أساسية للوقوف على الأسباب العميقة للمنعطفات التاريخية الحاسمة في حياة الأمم.

فانطلاقا من هذا الاقتناع جاء اختيار موضوع : "قراءة المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمة المجاعات والأوبئة". وقد استهدفنا من خلاله :

أولا : الوقوف على المجاعات والأوبئة التي طالت المغرب الموحدي والمريني على حد سواء.

ثانيا : التركيز على أكبر وأشهر المدن آنذاك بحكم أن الحواضر كانت أكثر إصابة بآفة الأوبئة نظرا للكثافة السكانية التي تعرفها ونحن نعلم أن هذا الأمر يعد من العوامل الأساسية التي تسهل وتعجل انتقال العدوى بين الناس.

لنصل في نهاية المطاف إلى تسجيل بعض الملاحظات والاستنتاجات محاولين قدر الإمكان الاستعانة بالمنهج الإحصائي سواء في رصد تلك الكوارث أوفي تقدير آثارها ومخلفاتها السلبية على الأرواح

المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، ص : 105-118

البشرية وعلى نفسية ساكنة تلك الحواضر وكذلك على المعالم العمرانية بها.

وقبل الحديث عن آفة المجاعات والأوبئة لا بد من التذكير بأنها تعد إحدى الكوارث الطبيعية التي يمكن أن تتعرض لها مدينة معينة أومنطقة محددة بل وربما البلاد بأكملها. وهي بذلك تنضاف إلى لائحة الكوارث الطبيعية الأخرى مثل : الزلازل والعواصف والسيول وزحف الجراد... غير أن ما يميز آفة المجاعات والأوبئة عن هذه الكوارث المذكورة أعلاه أن :

- ✓ الأولى (الزلازل- العواصف...) تتسم بالفجائية وهي تصبح علة وسبب ظهور الكوارث الطبيعية الثانية والمتمثلة في المجاعات والأوبئة.
- ✓ وقع هذه الكوارث الأولى يتجلى في المنشآت العمرانية بالدرجة الأولى، بينما وقع الكوارث الطبيعية الثانية تمس خاصة العنصر البشري.

ورغم هذا التمييز بين شطري هذه الكوارث الطبيعية (سبب/نتيجة) فهي تتوحد في نتيجة مشتركة كبرى هي : الانهيار الديموغرافي الكبير.

كما أنه من الضروري في هذه التوطئة الإشارة إلى المشكل البيبليوغرافي الذي يعترض الباحث في مثل هذا الموضوع، وهومشكل يتضح بجلاء في النقط التالية :

1. نقص المادة المصدرية ذلك أن الكتابة التاريخية في العصر الوسيط ظلت سجينة وحبيسة الحدث السياسي. فالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي وبالذات الحضري مع ما يطرحه من قضايا متعددة من ضمنها موضوع الكوارث الطبيعية، التي يبقى الحديث عنها أمرا مهمشا.

2. الأوصاف العامة التي تميز المعلومات المصدرية المقتضبة. فهي أوصاف تخص البلاد بأكملها والنادر منها يركز الحديث عن وضع مدينة معينة. ومن ثم يضطر الباحث أحيانا أن يطلق حكما على مدينة من المدن انطلاقا من تلك الأوصاف العامة معتمدا في ذلك على مرجعية أساسية ألا وهي أن الوباء يظهر أكثر حيث يكون التجمع السكاني مكثفا وهذا الشرط متوفر بالمدن.

3. صعوبة التوصل إلى إحصائيات مضبوطة سواء عن العدد الإجمالي للسكان قبل آفة المجاعات والأوبئة أوعن الخسائر البشرية كمخلفات لهذه الآفة. فكل ما تقدمه المصادر سواء الموحدية منها أم المرينية يدخل ضمن أدبيات الوصف مثل : "كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم هلك فيها خلق كثير" ثم "لقد هلكت أمم لا تحصى" ثم "واستولت المجاعة على جمهور الناس" ثم "وباء مفرط هرب فيها (يعني المدة التي وقع فيها هذا الوباء) أكثر أهل البلاد".

هذا، وإن كانت هذه المصادر تعطي في بعض الأحيان إشارات تحمل بين طياتها بعض الإحصائيات مثل ما يورده ابن عذاري وهو يتحدث عن الوباء الذي ضرب مراكش سنة 571هـ/1175م، إذ يقول :"انتهى عدد الأموات في كل يوم مائة إلى مائة وتسعين شخصا وأكثر من ذلك".[1]

4. نقص الكتابات والأعمال الأكاديمية المهتمة بهذا الموضوع وبالذات في العصر الوسيط ذلك أننا نجد عدد الباحثين المهتمين بتقصي الكوارث الطبيعية بالمغرب ينكبون على التنقيب في الفترة الحديثة ثم المعاصرة نظرا لتوفر المادة المصدرية بالمقارنة مع الفترة الوسيطية.[2] ونظرا لما يتطلبه هذا المجال من عمل جماعي مكثف يصبوإلى توظيف علوم جديدة مساعدة بل وضرورية للوصول إلى نتائج جديدة في هذا المضمار, ظهر توجه جديد وهوالاشتغال في مجموعات بحث. وهدف هذه المجموعات هو تكثيف جهود الباحثين للدفع بهذا الملف العلمي إلى الأمام[3]

---

[1] "البيان المغرب"، قسم الموحدين، تحقيق : الأساتذة : محمد ابراهيم الكتاني،محمد بن تاويت،محمد زنيبر-عبد القادر زمامة، البيضاء 1985، ص : 136.

عن قلة الإحصائيات التي توفرها المصادر الوسيطية بهذا الشأن يحاول الباحث مصطفى نشاط أن يجد تعليلا لذلك فيقدم عدة افتراضات يوزعها ما بين طابع الكتابة التاريخية التي كانت تركز بالدرجة الأولى على الحدث السياسي متناسية التاريخ الاجتماعي، وما بين المرجعية الدينية السائدة بالمجتمع المغربي آنذاك والتي كانت تعتبر الآفة بمثابة وسيلة للمؤمنين للظفر بالشهادة والرحمة وأخيرا ما بين عدم انتباه المؤرخين لتسجيل هذه الآفة التي كانت تضرب المغرب كل 10 أو15 سنة حسب الحسن الوزان.

-مصطفى نشاط :"من صعوبات البحث في الديموغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط : الطاعون الأسود نموذجا"، مجلة كلية الآداب وجدة، ع : 6, 1996، ص. 29-30.

[2] مثل أعمال الأساتذة التريكي، البزاز ،ستيتو.

[3] وهنا نذكر أشغال مجموعة بحث "الديموغرافية التاريخية" بكلية الآداب بوجدة والتي نظمت العديد من اللقاءات والأيام الدراسية والندوات لهذا الهدف.

I-مظاهر المجاعات والأوبئة بالمجتمع المغربي : الموحدي والمريني

لقد شهد المغرب خلال الفترة الموحدية والمرينية العديد من المجاعات والأوبئة. فإذا ظهر البعض منها في الفترات العادية للدولتين فأكثرها سجل في أواخر مراحلها، وهي الفترة التي صادفت هرم الدولة وتقهقرها. وسنحاول تتبع ذلك من خلال الجداول التالية التي تحاول رصد كل المجاعات والأوبئة التي ضربت المغرب خلال فترة الحكم الموحدي والمريني انطلاقا من مصادر معينة.[4]

كما ننوه بمبادرة الجمعية المغربية للبحث التاريخي التي تنظم اليوم هذا اللقاء الذي استدعت له أساتذة لتقديم مداخلات تغطي جميع الفترات الزمنية بدءا من العصر القديم ومرورا بالعصر الوسيط بمختلف مراحله وكذلك العصر الحديث إلى حدود الفترة المعاصرة.

[4] بالنسبة للفترة الموحدية اعتمدنا بالدرجة الأولى ما ذكره كل من ابن عذاري وابن أبي زرع، ذلك أنهما يقدمان سنوات المجاعات والأوبئة بتفصيل بينما نجد باقي المؤرخين يتحدثون عن ذلك بطريقة إجمالية مثل ابن القاضي حينما تحدث عن المجاعات بالمغرب الموحدي قائلا : "عمت الفتنة وتفشت المجاعة العظمى التي خلا منها المغرب، وتوالت به الفتن وعدمت الأقوات, وذلك من سنة تسع عشرة إلى سنة سبع وثلاثين وستمئة لما أراد الله تعالى انقراض الدولة الموحدية وظهور الدولة المرينية بالمغرب" "جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام بمدينة فاس"، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1974، ص : 34.

المجاعات بالمغرب الموحدي

سنة وقوع الآفة	المصدر	مكانها	تقدير آثار وقوعها من خلال نصوص مصدرية معبرة
616هـ/ 1219م	-ابن عذاري، البيان المغرب،القسم الموحدي، ص 266-267	لم يحدد إقليما أومدينة بعينها	"وفي سنة ست عشرة وستمائة كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاها الضاعن والمقيم وتناهى الحال في مزيد السعر إلى ما لا نهاية له وكان ابتداء الحال فيه في السنتين المتقدمتين لهذه السنة المؤرخة".
631هـ/1233م	ابن عذاري، القسم الموحدي ص.318-320	الحوز : يتحدث عن فتنة الخلط وحصارهم لمراكش	"(...) وعظم انتقامهم وعيثهم (الخلط) في الحوز فضاقت الأرض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد وارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات وعدمت الأقوات وقل كل مرفق وأعوز وجدان ما ينتفع به الناس من الحطب والتبن والفواكه والخضر وما يجلب من البوادي واقشعرت الجلود من هول المكابدة في طلب شيء من أنواع الحنطة وبلغت مبلغا لا عهد بمثله حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق اللطيف الفاسد إلى ثلاثة دنانير (...) وتمام الشرح لهذه المجاعة يأتي بعد ذلك (...)".
631هـ/1233م	ابن عذاري، القسم الموحدي، ص. 323	أغمات يتحدث عن كيفية خروج الرشيد من حضرته بجميع جنده	"(...) وأخذوا في التضييق على أغمات والانتهاء إلى سورها فأقاموا لها محاصرين يومين لم يجد أحد فيها شيئا يبتاعه واحتيج إلى طعام برسم زاد لدار الخليفة الرشيد فتطوف خاصته المشرف أبوالبركات على الأسواق تم على أهل الديار ثم اقتحم بعضها فلم يجتمع له إلا قدر تسعين مدا من قمح (...) فلم يمكن الاستقرار هناك على الجوع فأجمعوا أمرهم على الخروج إلى جهة تالمقت (...)"
631هـ/1233م	ابن عذاري، القسم الموحدي	-مراكش	"(...) واستولت المجاعة على جمهور الناس ورأوا محنا يستعاذ بالله منها (...) وأما أسواق

	ص. 325-326.		المدينة في هذه المجاعة فلم يكن بها ما يطلق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه والحوانيت مغلقة (...) ولذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه (...) وسائر الأيام إنما يظهر في الأسواق ما يكرر طحنه من فيتور الزيتون وغيره فهوكان غذاء الناس (...) وكذلك النارنج (...) وكان يباع في الأسواق خبز يعمل من تابودا (...) ومن جملة ما اقتات الناس به في ذلك الوقت عصائد تصنع من نوار الخروب وما عدا هذا ليس له وجود البتة حتى لقد هلكت أمم لا تخص."
637هـ/1239م	ابن عذاري،القسم الموحدي ص. 351	-أكثر بلاد الغرب وخاصة : سبتة أحواز مكناسة فاس	"كان الغلاء المفرط والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة (...) عصمنا الله من مثلها بفضله. "وكان أشد ضررا في تلك الجهات (البلاد الغربية) على الناس عرب رياح بالاختلاس والافتراس لا سيما بأحواز مكناسة فاس"

ملحوظة : أشار ابن عذاري إلى ثلاث مجاعات شديدة خلال مدة 20 سنة بدءا من 616 هـ إلى حدود 637 هـ مرورا بسنة 631 هـ ولكنه لم يتوقف عند سنة 624 هـ. غير أن ابن أبي زرع ينفرد بتقديم معلومات وهويتحدث عن خبر بيعة أمير المؤمنين ادريس الملقب بالمامون بن يعقوب المنصور الموحدي إذ يقول أن ذلك تم : "والبلاد تضطرم نارا قد توالى عليها الخراب والفتن والقحط والغلاء الشديد والخوف بالطرقات". (القرطاس)، ص. 326.

الأوبئة بالمغرب الموحدي

سنة وقوع الآفة	المصدر	مكانها	تقدير آثار وقعها من خلال نصوص مصدرية معبرة
571هـ/1175م	ابن عذاري،القسم الموحدي، ص. 136-137	مراكش	"تنزل الوباء والطاعون بمدينة مراكش في أول شهر ذي القعدة ولم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله وانتهى عدد الأموات في كل يوم مائة إلى مائة وتسعين شخصا وأكثر من ذلك حتى إن الناس لا يستطيعون بحملهم إلى الجامع للصلاة عليهم فأمر الخليفة أن يصلى عليهم في سائر المساجد رفقا بالناس في ذلك (...) واتصل روع الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد وكل من خرج منها فارا بنفسه مات في الطريق (...) وأما من كان في دورهم وقصورهم (يعني الخليفة أبويعقوب وأخوة أبوحفص) من الخدم والعبيد وغيرهم (...) كان يموت في كل يوم في دورهم ثلاثون شخصا حتى فني أكثر من كان في قصورهم ودورهم..."
634هـ/1236م	ابن عذاري، القسم الموحدي ص. 345	مراكش	"واجتمعت الوفود من أهل إشبيلية وسبتة وغمارة البحر من البلدين ووافقوا الصيف بمراكش ومزاجها الانحراف وهواؤها رديء بكثرة الأمطار من الجدب الذي كان تقدم أعواما فكثرت الرطوبة وحدث الوباء (...) وقتل منهم عددا كثيرا..."
635هـ/1237م	ابن أبي زرع، القرطاس، ص. 336 .	العدوة والأندلس	"وكان بالعدوة والأندلس في هذه المدة غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيها أكثر أهل البلاد ووصل قفيز القمح فيها ثلاثين دينارا".

المجاعات بالمغرب المريني

سنة وقوع الآفة	المصدر	مكانها	تقدير آثار وقعها من خلال نصوص مصدرية معبرة
679هـ/1280م	-ابن أبي زرع، القرطاس، ص : 535 -الناصري، الاستقصا، ج : 3, ص. 89	بلاد المغرب المغرب	"(...) وفيها كان الجراد ببلاد المغرب، أكل جميع زروعها فلم يترك بها مخضرا، وفيها كانت المجاعة، وصل القمح فيها عشرة دراهم للصاع". نفس المعلومات.
693هـ/1293م 693هـ/1293م	-ابن أبي زرع،القرطاس ص. 539-540 -الناصري, الاستقصا, ج :3،ص. 89	المغرب وإفريقية ومصر المغرب وإفريقية ومصر	"وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر. هلك فيها خلق كثير، وبلغ القمح فيها عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواقي بدرهم." "وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وإفريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم".
724هـ/1323م	-ابن أبي زرع, القرطاس, ص : 544-545	المغرب فاس	"كان الغلاء العظيم والمجاعة الشديدة بالمغرب (...) نشأ بخارج مدينة فاس من جهة جوفها سحاب وظلمة شديدة ورياح هائلة وإعصار عظيم، أعقب ذلك برد عظيم كبير الجرم (...)، وفي خلاله مطر وابل، فجاء منه السيول الطاغية(...) وجاء وادي سد أوراغ بسيل عظيم هلك فيه بشر كثير من الناس ما يزيد على مائة وخمسين نفسا..."

724هـ/1323م	-الناصري، الاستقصا,ج :3 ,ص : 179	المغرب فاس	"كانت المجاعة بالمغرب وارتفعت الأسعار في جميع البلاد فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهما والصحفة منه تسعين دينارا وغلا الآدام وعدمت الخضر بأسرها...)
776هـ/1374	-الناصري، الاستقصا,ج :4،ص. 83(أخذا عن ابن قنفد)	المغرب	"(...) كانت المجاعة العظيمة وعم الخراب بالمغرب, فأقمت بتلمسان نحوشهر أنتظر تيسر الطريق(...) وكان أمر الطريق في الخوف والجوع بحيث أن كل ما نقدم عليه، يتعجب من وصولنا سالمين،, ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا، حتى منهم من يسمعنا ضرب الأكف خلفنا تحسرا علينا".

ملحوظة : إن هذه الإشارات الصريحة للعديد من المجاعات التي تعرض لها المغرب المريني تخللتها إشارات أخرى لدى كل من ابن أبي زرع والناصري تفيد أن المغرب عانى آنذاك من قحط شديد سنة 683هـ و711هـ و723هـ[5] أو من رياح شرقية عارمة سنة 687هـ و689هـ و722هـ.[6] أومن سيول مدمرة ومتلفة للعديد من المعالم العمرانية ومن أمطار وثلوج عظيمة سنة 723هـ و725هـ[7]

[5] "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، تحقيق عبد الوهاب بن المنصور، ط : 2 ، 1999.
-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، ج : 3، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري، البيضاء. 1956، ص. 529، ص. 178/89.

[6] "القرطاس"، ص : 543/538 /"الاستقصا"، ج : 3، ص. 179/89.

[7] "القرطاس"وص. 545/543 /"الاستقصا" ج. 3، ص. 179-180.

الأوبئة بالمغرب المريني

سنة وقوع الآفة	المصدر	مكانها	تقدير آثار وقعها من خلال نصوص مصدرية معبرة
693هـ/1293م	-ابن أبي زرع. القرطاس ص. 539-540 -الناصري، الاستقفصا، ج، 4، ص. 90	المغرب- إفريقية- مصر المغرب- إفريقية- مصر	"وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر, هلك فيها خلق كثير...) "(...) كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم, عم ذلك بلاد المغرب وإفريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل".
749هـ- 750هـ/ 1348م-1349م	-ابن خلدون، المقدمة، ص. 53 بن الخطيب، "معيار الاختيار" 1976،ص. 156/164/179.	سلا مراكش فاس	"(...) فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة (...) هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي يخيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها (...) وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع, ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل". -بعوضها مستأسد راضع غير مفطوم..." (يقصد سلا) -"جرذان المقابر تأكل أمواتها..." (يقصد مراكش) -"مشبعة جرذان..." (يقصد فاس)

II-المدينة الموحدية والمرينية في مواجهة آفة المجاعات والأوبئة :

انطلاقا من القراءة المصدرية السابقة نستخلص الملاحظات التالية :

1. يتضح لنا أن الأوصاف المقدمة سواء المتعلقة منها بالفترة الموحدية أم المرينية تتسم بالعمومية. فهي تخص البلاد بأكملها (هناك عدة عبارات مثل : بلاد المغرب، الأندلس-إفريقية، مصر). ومع ذلك، نسجل إشارات مهمة إلى بعض الحواضر المغربية.

ففي الفترة الموحدية هناك إشارات تخص إقليم الحوز وبالذات أغمات ومراكش وأخرى تخص أحواز مكناس وفاس وأخرى تخص سبتة ولكن أكثر المعلومات كانت تهم مدينة مراكش.

وفي الفترة المرينية هناك إشارات تخص مكناس وفاس وأحوازها تم رباط تازة وأحوازها وكذلك سلا ومراكش، ولكن المعلومات المكثفة انفردت بها مدينة فاس.

فهذه الملاحظة قد تفضي إلى استنتاج أولي مفاده أنه من البديهي ومن الضروري أن تركز المصادر الحديث عن المدن العواصم ولكنها في الوقت نفسه تفيد بمعلومة أساسية ألا وهي أن وجود التكاثف والتكاثر السكاني يؤدي إلى تتفشى الأوبئة بشكل أكثر وأسرع. ومن ثم فالمدن الكبرى هي التي تكون عرضة لهذه الآفة، من قبيل فاس ومراكش وسبتة التي تعد من المراكز الحضرية الكبرى ذات الأدوار السياسية والاقتصادية والفكرية المتميزة في العصر الوسيط.

2. سبق أن ذكرنا في المقدمة أن المدينة تختزل تاريخ الدول, ومن تم فقراءة المدينة الموحدية والمرينية انطلاقا من أزمة المجاعات والأوبئة تساعدنا على الوقوف على منعطف حاسم في حياة الدولتين إذ لاحظنا أن هذه الآفة تتزامن وهرم الدولة. هذا الهرم الذي يتضح أكثر في هذه المدينة العاصمة ومن ثم يفهم استقطاب كل من مدينة مراكش وفاس أضواء الكتابة التاريخية في العصر الوسيط بخصوص هذا الموضوع. وهنا نستحضر كلام ابن خلدون حينما قال : "إن المجاعات والموتان تكثر عند

ذلك في أواخر الدول, والسبب فيه إما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح (...) أوالفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة" [8]

3. إن أدق مظاهر المجاعة والأوبئة بل وآثارها السلبية تعكسها الحياة بالمدينة. فهي تتجلى في أمور بسيطة ولكنها معبرة مثل :

أ- **نفسية ساكنة المدينة** التي يعتريها التشاؤم والحزن والخوف مما يترتب عليه تفشي العديد من الصفات القبيحة بالمدينة كالاعتداء على ممتلكات الغير لضمان استمرارية حياته وكتفشي ظاهرة التسول وقد أشار إلى ذلك بعبارة صريحة ابن عذاري حينما تحدث عن المجاعة التي طالت مدينة مراكش سنة 631هـ/1233م فقال أنه إذا ظهر شيء "من خبز الشعير في السوق يحشر الناس عليه (...) ثم لا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء المساكين حتى ينتزعوه منه قهرا..."[9] وكانتشار ظاهرة الخضوع والخنوع والاكتفاء بالتبرك بالأولياء كما أشار إلى ذلك الحسن الوزان[10].

وفي أقصى المواقف التي تفصح عن تمرد الإنسان ضد هذا الوضع تنتشر ظاهرة الهروب والفرار ولعل في عبارة ابن عذاري ما يفيد ذلك بحيث قال : "(...) واتصل روع الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد وكل من خرج منها فارا بنفسه مات في الطريق"[11] وهويتحدث عن الوباء الذي أصاب مدينة مراكش سنة 571هـ/1175م. ثم حينما قال ابن أبي زرع وهويصف وباء سنة 635هـ/1237م :" وكان بالعدوة والأندلس في هذه المدة غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيها أكثر أهل البلاد"[12]

ب- **تراجع القطاع الفكري** ذلك أن آفة المجاعات وبالذات الأوبئة كانت تقضي على نسبة هامة من العلماء والمفكرين. وقد ذكر ابن القاضي

---

8 "المقدمة"، صححها ونقحها تركي فرحان المصطفى، طبعة ملونة، دار إحياء التراث العربي، ص. 302.

9 ابن عذاري، تسع الموحدين، ص. 325.

10 وصف إفريقيا، ج. 1 ، ص. 68.

11 البيان المغرب، قسم الموحدين، ص. 136

12 القرطاس، ص. 336.

أسماء البعض ممن توفي منهم بمدينة فاس [13] وكذلك ابن مرزوق[14] كما ذكر صاحب "بلغة الأمنية" من توفي بمدينة سبتة[15]

4. إن المظاهر الصارخة لآفة المجاعات والأوبئة تتضح أكثر في المدينة ذلك أن هذه الآفة إذا كانت تخلف خسائر بشرية جسيمة فالإشارات المصدرية تزكي هذا الأمر، إذ نجد ابن عذاري يتحدث عن ذلك بخصوص المدينة الموحدية بشكل عام حينما يذكر أنه "هلكت أمم لا تحصى"[16] وبطريقة أدق حينما يقول : "(...) وانتهى عدد الأموات في كل يوم مائة إلى مائة وتسعين شخصا وأكثر"[17] وعن المدينة المرينية وبالذات مدينة فاس يذكر ابن أبي زرع أنه إثر المجاعة التي أصابتها سنة 724هـ/1323م وكذلك إثر السيل العظيم الذي تعرضت له : "هلك فيه بشر كثير من الناس ما يزيد على مائة وخمسين نفسا..."[18] وفي السياق نفسه نجد ابن خلدون يقول : "(...) فإن الوتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء"[19]

وإذا كانت آفة المجاعات والأوبئة تخلف تلفا واندثارا للمعالم العمرانية فالمدينة سباقة إلى تجسيد ذلك. ولعل في كلام ابن خلدون ما يلخص بإيجاز دقيق هذا الوضع حيث قال وهو يتحدث عن الطاعون الأسود :"(...) وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها(...) وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل..."[20]

هذه محاولة أولية لفهم آفة المجاعات والأوبئة التي ضربت المغرب الموحدي والمريني متخذة من المدينة المغربية وسيلة لذلك

---

[13] جدوة الاقتباس، ج. 1، ص. 302، ج. 2، ص..538

[14] المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، نشر ليفي بروفانسال، مجلة هيسبيريس 1925.

[15] مؤلف مجهول، الرباط 1969، ص. 28

[16] البيان المغرب، قسم الموحدين، ص. 326، يتحدث عن مجاعة سنة 631هـ التي ضربت مدينة مراكش.

[17] نفسه، ص. 136, يتحدث عن الوباء الذي أصاب مراكش سنة 571هـ.

[18] القرطاس، ص. 545.

[19] المقدمة، ص. 302.

[20] المقدمة، ص. 302.

الغرض. وقد كان الغرض منه التنقيب عن بعض السبل والمسالك التي تساهم في إماطة اللثام عن خبايا هذا الموضوع.